قصص الرشيد



نكبة البرامكة

تصدرها نهضة مصر بالفجالة

قصص الرشيد

— ٣ —

نكبة البرامكة

بقلم

ابراهيم عزوز

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة — القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة — القاهرة

هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية . وقد كان عصره أزهى عصور المسلمين فى بغداد . فبلغت الدولة الإسلامية فى أيامه قمة مجدها . حتى تزلف إليها أكبر ملوك أوربا ، وخطبوا ودّها ورضاها .

وجدير بأبناء العرب فى كل مكان أن يقرءوا تاريخ هذا العصر الذهبى ؛ ويقفوا على سر عظمة أجدادهم . ليستمدوا القدوة الصالحة ، والعبرة النافعة .

وإنى إذ أقدم للناشئة هذه القصص ، التى تصور هذا العصر تصويراً ، فى بعضه الصدق التاريخى ، وفى بعضه الخيال الأدبى — لأرجو أن ينفع الله بها أبناءنا ، وأن تحفز هممهم لدرس هذا التاريخ المجيد .

والله الموفق المؤلف

تركنا جعفرًا يُحدّثك عنّا — نحن البرامكة — ويقصُّ عليك بعض قِصصِنا وأخبارنا.

وقد سمعتَ منه شيئاً قليلاً من صفاتنا وأحوالنا في قصّةِ « مجدِ البرامكة » وذلك لأنَّه لو أخبرَكَ بكلِّ ما حدث لنا، وبكلِّ ما عملناه في مُدّةِ حُكمِنا، وأيامِ مجدِنا لأملى عليك مئاتِ القصصِ المشوِّقةِ النادرة.

وتستطيعُ أنت وحدَك أن تقرأَ من أخبارِنا الشيء الكثير في كُتُبِ الأدبِ الكبيرة. ودواوينِ الشعراء الذين مدحونا ونَشرُوا بشعرِهم ذكرَنا في كلِّ مكان.

وجميعُ كُتُبِ التاريخِ المشهورةِ تشهدُ لنا بالفضلِ، وتعترِفُ بأننا خدمْنَا الرشيدَ أعظمَ الخدماتِ، وبأنّ إخلاصَنا له لم يكُنْ فيه شَكٌّ.

ومَعَ ذلك تغيَّرَ قلبُــــه علينا ، وأضمَرَ لنا العداوةَ والبَغضَاء ، ودبَّرَ الحيَل للانتقامِ منَّا بغير ذنبٍ جنَيناه .

ونحن حقًّا نتَّهمه بظُلمِنَا والغدرِ بنا ، ولكِنَّنَا نعترفُ بأنَّ سببَ هذا الظلمِ ، أنه سمعَ فينا وِشَايَةَ الأعداءِ ، وصَدَّقَ كذبَ المغتاظين منّا ، الحَاقِدِينَ علينا .

ونَظنُّ أنك لاتصَدِّقُنا فى دفاعِنا عن أنفُسِنا ، وخصوصاً إذا تركنا جعفراً يتولَّى هذا الدفاع ؛ لأنك تعرِفُ من التاريخِ أنّ جعفراً كان أوّلَ الذين قتلهم الرشيدُ منا ، وأنه أمر بِقَتلِه وهو فى مجالِس أُنسِهِ وسَمَرِهِ .

فلو دافعَ جعفرٌ عنّا ، لَقُلْتَ أنت : هذا دفاعٌ غيرُ صحيحٍ ، وكيف يعترفُ جعفرٌ على نفسِه بالخطأِ فى حقِّ الرشيد ؟ !

وإذَا فلا بُدَّ أنْ نختارَ مُحاميًا آخر ؛ ليَعرِضَ عليك قضيَّتنَا ، ويُسمِعَكَ هذه القصةَ المشئومةَ ، التى لم يحفظِ

التاريخُ مِثلَها من قبلُ وأنْ يحفَظ مِثلَها من بعدُ .

وقد وقع اختيارُنا على إسماعيلَ بْنِ يَحْيَ الهاشِمىّ وهو ابنُ عمِّ الرشيدِ ، ومن خاصّةِ أصحابِه وأهلِه ليترافـــعَ فى قضيَّتِنا أمامَك ، ويتولى الدفاعَ عنا حتى تَطمئنَّ أنت إلى شهادَتِه وتثقَ بكلامِه .

فأَصْـغِ إليه ، واسمَعْ منه فهو الآن يحدِّثُك :



لِلّهِ أنتم يا معشرَ البرامِكة!! لقد دعَوْتموني إلى الحديثِ مع أهلِ الدنيا ، بعد ما نسيتُ الدُّنيا وأهلَها وكلَّ ما فيها .

ولولا أنّي أرجو أن يتَّخِذَ الأحياءُ من قصتِكم مع ابْنِ عمّي الرشيدِ، درساً ينتفعون به ، ما رضيتُ أن أتحدَّثَ إليهم ، أو أشغَلَ نفسي بالكلامِ معهم .

وأنتم يا معشرَ البرامكةِ ، أهلُ الفضلِ والكرمِ والجودِ ، ولا يستطيعُ إنسانٌ أن يُنكِرَ فضلَكم على دولتنا التي كانت تُسمَّى الدولة العباسيةَ ، وبخاصةٍ فضلُكم على ابن عمّي الرشيد .

ولكن معَ ذكائِكم ، وسَعَةِ عقولِكم ، وحُسْنِ تدبيركم وسياستِكم ، وقعتم في أخطاءٍ صغيرةٍ كانت هي سببَ مصيبتِكم وبلائِكم .

فقد نسيتم أنّ الرشيدَ كان ملكا مستبِدًّا ، مثل كلِّ ملوكِ عصرِهِ وزمانِه . والملوكُ المستبدون لا يطمئنُّ إليهم أحدٌ مهما أخلصَ لهم ، وأفنى نفسه فى خدمتِهم ؛ لأنَّهم دائما يُسيئُونَ الظنَّ بخَدَمِهِم ، ويخشَونَ منهم أن يثوروا دائما ويخلعوهُم من الملك .

وأنتم تشكُون من ظلمِ الرشيد لكم ، بعد ما خدمتموه سبعةَ عشرَ عاما ولكِنِّى كنتُ أَعْجَبُ وأَستَغرِبُ ، كيف صبرَ الرشيدُ عليكم كلَّ هذه المدةِ الطويلةِ ، ولم ينتقم منكم بسرعةٍ ، كما فعلَ جدُّه السفَّاحُ بوزيرِهِ أبي سَلَمَةَ الخَلاَّل ، وكما فعل جدُّه المنصورُ بوزيرِهِ أبي مُسلمٍ الخُرَاسَانى .

وكان يَحسُنُ بِكُمْ أن تتَّخِذُوا من حياةِ الوزراء السابقين دُروسا تتعلمونها وتنتفِعُون بها . ولكنَّكم اغْتَرَرْتُم بصبرِ الرشيد وحِلْمِه ، ورضَاهُ عنكم ، وحسبتم

أنَّ الدنيا باقيةٌ لكم إلى آخرِ الدهر .

— مهلَكَ يا إسماعيلُ ، إنّ لَوْمَك لنا لا ينفَعُ الآن ، فقد انتهى كلُّ شيءٍ ، وانقضتْ أيامُنا ودولَتُنَا فى الدُّنيا ، فاترُكْ لومَنا ، وحَدِّثِ الناسَ بما تعرِفُ من أسبابِ نكبتِنا ومُصيبتِنا على يَدَى الرّشيد .

— حَسن ! لا داعِيَ حقًّا لِلَوْمِكُمْ ومؤاخذَتِكُمْ ، وَهَأنذا أذكرُ ما أَعْرِفُ من أسبابِ غضبِ الرشيدِ عليكم :



دعانى الرشيدُ يوما لنخرجَ إلى الصيدِ ؛ فركبنا وركبَ معنا جنودٌ وغِلْمان ، وسِرْنَا فى الطريق .

وبينما نحنُ نسيرُ ، نظرَ الرشيدُ فرأى من بعيدٍ مَوْكِبًا نخماً ، فيه مئاتٌ وألوفٌ من الخدمِ والغِلْمان .

وفيه جِيَادُ الخيل ، وكلابُ الصيّدِ . وقد جمَعَ مِنَ الأُبَّهَةِ والفَخَامةِ مالا شئَ بعدَه . فالتفت إلىَّ الرشيدُ وقال :

— لِمنْ هذا الموكبُ يا إسماعيل ؟ !

فأردتُ أن أُهوّنَ عليه الأمْرَ وقلتُ له :

— هو لِأخيكَ جعفر بنِ يحيَ .

فنظر الرشيدُ إلى موكِبه هو ؛ فوجَدَه جماعةً صغيرةً لا تليقُ بعظمةِ الملكِ ، فظهر الغيظَ فى وجهِه ، ثم زاد

غيظُه حينما أعادَ النظرَ إلى موكبِ جعفرٍ ، فرآه قد اختفى فى الطريق . فلم يستطعْ أن يصبرَ على هذا ، وقال لى :

— إنّ جعفرًا يا إسماعيلُ لم يَرنا نستحقُّ السّيْرَ معه ، ولم يرْضَ أن يُعظِّمَ موكِبَنا باضمامِه إلينا .

فأحسستُ الخطرَ على جعفرٍ ، وقلتُ للرشيد :

— العفو يا أميرَ المؤمنين ! ! لو رآك جعفرٌ وعَلِم مكانَك ، لأسرعَ بالوقوفِ بين يديك ، ولَسعَى فى خدْمتِك . فإنّما هو خادمُك ، ووزيرُك ، وابنُ مُرضعَتِك . وقد شرّفْتَه أنت وأعليتَ قدره . ولولا رضاك عنه لم يكن شيئاً ذا قيمة .

فاستَحْيَا الرشيدُ ، وكان من أكثرِ الناسِ استحياء وخجلا ، وسكت .



إن جعفراً يا إسماعيل لم يرنا . . .

ثم سِرْنا فى طريقِنا ، فرأينا ضَيْعَةً خِصْبَةً كثيرةَ الزروعِ والأشجارِ ، كثيرةَ الدواجِنِ والحيوان ، وقد شُقَّتْ فيها القنواتُ والترعُ ، وقام الفلّاحون والعُمّالُ بالخدمةِ فيها ، والعنايةِ بها ، حتى أثمرتْ أحسنَ الثمراتِ والغـــلّاتِ . وقد اتَّسعَتْ طولا وعرْضاً ، حتى عَجَزَتْ عيونُنا عن رؤيةِ حُدُودِها .

فلمّا رآها الرشيدُ سألنى :

— لمن هذه الضَّيْعَةُ يا إسماعيل ؟

فقلت :

— هى لأخيك جعفر ، وهى نعمةٌ من نِعَمِكَ عليه .

فتنفَّس نَفَسًا حزيناً طويلاً ، وسكت .

وسرنا فى طريقِنا ، وكُلّما رأينا ضَيْعَةً عامِرَةً سألنى

عنها ، فأجبتُه : إنها ضيعةُ أخرَى لجعفر . وهكذا حتى وصلنا إلى المدينة راجعين .

ولما استقرَّ به المجلسُ في قصرِه ، وأردتُ أن أودِّعَه وأنصرِفَ ، أشار إلىَّ بالجلوسِ ، وأشار إلى الحاضرينَ بالانصراف .

ولما صِرتُ وحيدًا معه في المجلسِ ، نظر إلىَّ والأسفُ ظاهرٌ في وجهِهِ وقال :

— انظر يا إسماعيل ، كيف أغنَيْنا البرامكةَ ، وأفقَرنا أولادَنا ! !

فقلتُ في نفسي :

— والله لقد غار الرشيدُ من البرامِكة ، وقد حلَّتِ البَلِيَّةُ والمُصِيبةُ بهم .

ثم قلت له .

— ولماذا يا أميرَ المؤمنين تقولُ هذا القولَ ،

الذى ما نَطَقْتَ به من قبل ؟ !

— لقد سِرْنا اليومَ يا إسماعيلُ فى طريقٍ طويل ، لم نرَ فيه ضَيْعَةً واحدةً لأحَدِ أولادِنا ، ورأينا فيه عِدَّةَ ضِيَاعٍ عامِرَةٍ لِبَرْمَكِىٍّ واحد ! ! وإذا كانوا قد مَلَكوا كلَّ هذهِ الضياعِ فى مدينةٍ واحدةٍ ، فكم من الضياعِ مَلَكُوها فى المُدُنِ والبلادِ الأُخرى ! !

فقلت له بتوسُّلٍ واستعطاف :

— يا أميرَ المؤمنين . إن البرامكةَ عبيدُكَ وخدمُكَ ، وكلُّ ما يملكون من الضياعِ ، والأموالِ ، والخدمِ ، والأنفسِ . إنما هو ملكُكَ ، وفى قبضةِ يدِك .

فنظر إلىَّ نظرةً قاسيةً شديدةً وقال :

— ويلٌ لك يا إسماعيل ! أَتُغَشُّ نفسَك ، أم تغشُّنى ؟ ! إنك لتعلمُ أن البرامكةَ يَرَوْنَ بنى هاشمٍ عبيدَهم ، ويَرَوْنَ أنهم أصحابُ الفضل علينا فى الخلافةِ ، وأن جميعَ

ما عندنا من النِّعَمِ هم سببُه وأصلُه ، ولولاهم لما وصلنا إليه .

ونظرْتُ إلى وجهِه فوجدتُ الغيظَ قد ملأه ، فقلتُ :

— أنت يا أميرَ المؤمنين أعلمُ الناسِ بخَدَمِك وأتباعِك .

وسكتُّ ولم أتكلمْ .

وبعد قليل نظر إليّ وقال :

— اِعلمْ يا إسماعيلُ أَنِّى تحدّثتُ معك وحدَك بهذا الحديث . ولن يعلمَ به أحدٌ غيرُك ، ومتى عرفتُ أنهم سمعوا هذا الحديثَ ، عرفتُ أنك نقلتَه إليهم . فأحذرْ أنْ تفعَل ؛ حتى لا تَحُلَّ عليك نِقْمَتى .

فقلت له :

— أعوذُ بالله من غضَبِك يا أميرَ المؤمنين ! وكيف أفشِى سِرًّا من أسرارِك وقد جعلتَنِى أميناً عليه .

ثم ودَّعتُه وانصرفتُ ، وأنا أفكِّرُ فى مصيرِ هؤلاءِ القوم .

وبعد أيامٍ دَخَلْتُ على الرشيدِ فى الصباح ، فوجدتُه ظاهرَ التّعبِ من طولِ السّهرِ والتفكيرِ . وكنتُ جريئاً عليه ؛ لأنّى ابنُ عمّه وصديقُه كما تعرف ؛ ولهذا سألتُه وتلطّفتُ فى توجيه الحديث إليه ، فقلت :

— فديتُكَ بنفسِى من كلّ همٍّ يا أميرَ المؤمنين ! ! مالى أراك بادِىَ التّعَبِ ظاهِرَ التفكير ؟ !

فأطرق برأسِه إلى الأرضِ قليلا ، ثم رفعَ رأسَه وقد احمرّ وجهُه من الغيظِ ؛ كأنه أُصيبَ بالحمّى المفاجِئة . وسكت برهةً ليأخذَ نفسَه من الضيقِ ، ثم أشار إلىّ أن أقترِبَ منه وخاطبَنِى فى همسٍ قائلا :

— هل تذكر دفاعَك منذُ أيامٍ عن هؤلاء الكلابِ الخائنين . . . ؟ !

فقلتُ مَذهولا مذهوشا :

— أيُّ كلابٍ يا أميرَ المؤمنين ! وأيُّ خائنين ؟

وكيف أُدافِعُ أمَامَكَ عن قومٍ لا يستحقُّون الدفاع ؟!

فقال :

— أنسيتَ . . . ؟ لقد دافعتَ عن البرامكةِ ! !

فأجبته وأنا غارقٌ فى الدهشةِ والحيرة :

— مولاى . . . هل حدثَ جديدٌ ؟ ! وهل ظهرَ

مَن خدمِك وعبيدِك ما يؤلِمُك ؟ !

فَنظَر إِلىّ ساخراً وابْتَسَمَ فى وجهى ؛ كأنه يَرْثِى

لعقلى وحالِى ، وقال :

— إِنّك ما زلتَ واهما مخدوعا فى هؤلاءِ الكلاب ؟

وما زلتَ تصِفُهُم بأنهم خدمٌ وعبيدٌ . وهم سادتُنا وأصحابُ

الأمرِ فينا ! !

فقلت :

— وكيف يا أميرَ المؤمنين ؟ ! وماذا حدث ؟ !

فقال :

— ماذا تذكرُ من أمرِ يَحْيَي بنِ عبدِ الله العَلوىِّ ؟ !

فأجبته :

— كان يا مولاىَ زعيمَ العَلَوِيِّينَ ، وقد أحدث ثوْرَةً خطيرةً ضدَّ خلافَتِنَا فى بلادِ الدَّيْلَمِ . ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أراد أنْ يحفظَ المسلمين من الفِتَن والثوراتِ ، وأن يُبْقِىَ خلافته فى بيتِنا ، فقَبَضَ عليه وزيرُك الفضلُ بنُ يَحْيَي البرمكىُّ ، وأحضَرَه خاضِعاً ذليلاً ، دونَ أن تسيلَ قطرةٌ واحدةٌ من الدم بسببِ ثورتِه .

— حسن ؟ وهل تعرِفُ خطرَ العَلَوِيِّين على خلافتِنا وبيتِنا ؟ !

— نعم يا أميرَ المؤمنين . . . وليسَ لنا أعداءٌ على

وجهِ الأرضِ نخشاهم ونخافُهم غيرُ العلويِّينَ . . . فهُمْ أبناءُ عمِّنا ، والمسلمون جميعاً يعتقدون أنهم أصحابُ الحقِّ في الخلافةِ ، وأنهم مظلومون . ولذلك يعطِفُ الناسُ عليهم في كلِّ بلدٍ ينزلون فيه .

— حسن ! أنت إذًا تُدْرِكُ خطرَ العَلَويِّين ، وتَعْرِفُ أنَّ دوْلَتَنا لن يُصيبَها شرٌّ إلا من ناحيتِهم .

فاسمعِ الجديدَ في الأمر . . .

أحضرَ الفضلُ هذا العَلويَّ الثائرَ المتمرِّد ، فطلبتُ جعفراً وقلت له :

— يا جعفر ، قد نصرَنا اللهُ على عدُوِّنا ، ومَكَّنَنا منه بدونِ قتالٍ . فخُذْه واجعَلْه في سِجْنِك . وشدِّدْ عليه الحراسةَ ، حتى نرى فيه رأيا .

— وماذا حدث يا أميرَ المؤمنين مِنْ جعفرٍ ؟ !

— جاءني الفضلُ بنُ الربيع صباحَ أمس ، وأخبرني

أن جعفراً أطلقَ يحيى العلويَّ من السجنِ ، وأخرَجَهُ مِنَ البلادِ فى حفظٍ وسلام . . .

— يا مولاى . . هذا كثيرٌ ! ! ما أظنُّ جعفراً يصنَعُ هذا ، ويلعبُ بالنارِ ! ! إن الفضلَ بنَ الربيعِ أشدُّ أعداءِ البرامكةِ ، وهو لا يُحسِنُ إلا الوِشايةَ والدَسَّ . وأعتقدُ أنه اخترع هذهِ القصَّةَ ليغيِّرَ قلبَك على أخيك جعفر . .

وقَبْلَ أن أُتِمَّ كلامى ، صاح الرشيدُ فى وجهى وقال :

— كفى دفاعا عن هذا الكلبِ النَّجس ! ! وقد اعترف على نفسه ، فلا ينفعهُ دفاعُك .

اعترف على نفسِه . . . ! !

— نعم ، فقد ردَدتُ على الفضلِ بن الربيعِ ردًّا خَشِنا ، وقلتُ له : وما دُخُولُك فى هذا الأمرِ ؟ ! فأنا

الذى أمرْتُ جعفراً بإطلاقِ سراحِه . وإخراجِه من السجن .

ثم دعوتُ جعفراً ، وسألته عن يَحْيَى بن عبدِ الله !

— حسنٌ جدًّا يا مولاىَ ! إن الفضلَ بنَ الربيعِ غيَّر قَلْبَك وأفكارَك من جِهَةِ البرامكةِ . وجَعْفَرٌ لا يكذِب ، فبم أجاب حين سألتَه ؟ !

— جعفر لا يكذب . . . !! ها ! ها !. . لقد كذب جعفرٌ فى أوَّل الأمرِ ، وقال : هو عِنْدى ، وفى سِجْنى كما أمرْتَنِى يا أميرَ المؤمنين . فلما حَلَفتُ عليه أن يَصْدُقَنِى، قال وجدْتَه يا مولاىَ قد مرِضَ وضَعُفَ ، وصارَ لا خَطَرَ منه على الدولةِ ، فأشفقْتُ عليه وأطلقتُ سراحَه .

— يا لَلعَجَبِ ! ! هذه كبيرةٌ من جعفر ! ! وبماذا رَدَدْتَ عليه يا مولاى ؟ !

— لقد ضَحِكْتُ فى وجهِهِ ، وأظهرْتُ له السرورَ بما فعله وقلتُ له : إنى سألتُك عنه لآمُرَك بإخراجه من السجنِ ، بعدما صار لاضررَ منه ، ولا خَطرَ له .

— إنك يا أميرَ المؤمنين واسعُ الحلمِ ، عظيمُ العفو !!

— اسمع يا إسماعيلُ ، لاحِلْمَ ولا عَفْوَ بعدَ اليوم . لقد كنتُ أشكّ فيما أسمعه من الفضلِ بن الربيعِ ، وكنت أَرْفُضُ نصائحَ زَوْجتِى زُبَيْدَةَ حينما كانت تُخَوِّفُنى من البرامكةِ ، وتحذِّرُنى من جعفرٍ بصفةٍ خاصة . ولكنِ الآنَ قد صَحَوْتُ وأفقتُ ، وتأكَّدَ عِندى أن جعفراً يريدُ أنْ يَقلِبَ نظامَ الحكمِ ، وأَن ينقلَ الخلافةَ من بيتِ العباسيِّين إلى بيتِ البرامكة .

* * *

قال ذلك وهو يكاد يلْتَهِبُ من الغيظ ، فلم أَجِدْ كلمةً واحدةً أُهوِّنُ بها الأمرَ عليه . ثم وقفتُ مستأذِناً فى الانصرافِ وأنا أقول :

— سدّدَ الله خطاك ، وأعانك على أمرِك يا أميرَ المؤمنين .

وما كدتُ أسيرُ خطوتَيْنِ حتى نادانى قائلا :

— إسماعيل !

فأجبته :

— لَبَّيْكَ يا أميرَ المؤمنين . . .

فقال :

— ماذا سمعتَ منّى ؟ !

فأجبتُه وقد فهمتُ ما يريدُ :

— لاشىء . . . لاشىء يا مولاى .

— فقال : نعم . . . لاشىء ! ! أفاهمٌ أنت . . . ؟ !

فقلت :

— كلَّ الفهمِ يا مولاى . . .

فاستراح وقال :

— إذًا انصرف إلى منزلِك وعُدْ إلىّ من الغد .

خرجت من حضرتِه وأنا أقول فى نفسى :

يا رحمــــةً لكم أيها البرامكةُ ! ! لقد غَرَّتْـكُمُ الدنيا ، فلم تحسِبوا لغضبِ الرَّشيدِ حساباً ! ! إنّى لا أشكُّ فى إخلاصِكم وحسنِ نِيَّاتِكم . ولكنكم جمعتم من الثروةِ والجاهِ ، ما أغار الرشيدَ منكم . وتصرفتم فى الأمورِ بجرأةٍ جعلتِ الرشيدَ يشكُّ فيكم ! !

* * *

وأشهَدُ أنى قضيتُ ليلةً طويلةً حتى كأَنَّها لاصبحَ بعدَها ، ثم بكَّرْتُ إلى مجلس الرشيدِ . فماذا رأيت . . . ؟!

الرشيدُ جالسٌ ، وجعفرٌ عن يمينِه ، وهما يتحدثان ويضحكان كلما نظر جعفَرٌ فى ورقةٍ مما يحمله البريدُ إلى قصرِ الخلافة .

ولم يمضِ إلا قليلٌ حتى حضر الوزيرُ الأكبرُ يَحْيَى

ابنُ خالد . فقام الرشيدُ وعظَّمَهُ وحيّاهُ ، وقال له :

— يا أَبَتِي . . . لقد رأيتُ الوزارةَ صغيرةً على قدرِ جعفر . ولهذا قلّدْتُه ولايةَ خُراسانَ كلِّها ، وكنت أريدُ ذلك من زمَنٍ بعيد ، ولكنّي كنتُ لا أقدر على فراقِه والبعدِ عنه .

فوقف يحيَى وقبّلَ يَدَيْه كِلْتَيْهما .

وظهر السرورُ في المجلس كُلِّه ، فقلت أنا في نفسي :

— لقد كنتُ غبيًّا أمسِ حينما خِفْتُ على البرامكة . إنّ الرشيدَ يغفِرُ لجعفرٍ كلَّ ذنبٍ إذا ما رآه .

وطابت نفسِي ، وزالت مخاوفي .

وفي الحال قال الرشيدُ لجعفرٍ :

— قُمْ يا جعفرُ ، واستعدَّ للخروجِ إلى خُرَاسَانَ ، وأَرْسِلْ إليها جنودَكَ وخدمَكَ وغلمانَك . ولا تنسَ أنّي

ولّيتُك خراسانَ ، لأنّى أخشى ثوْرَاتِها وفِتَنَها وعليك أعتمدُ فى حسن إدارتِها ، وتأمينِ شئونِها .

فقال جعفر :

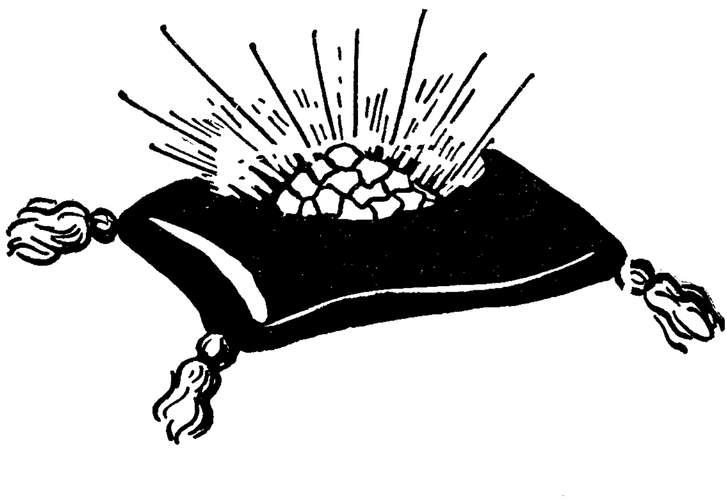
— جعلنى اللهُ فداءكَ وفداءَ دَوْلتِك يا أميرَ المؤمنين . ولن يقعَ فى خــــراسانَ إلا ماتحبُّ إن شاء الله ! ! وسيخرجُ الجُنْدُ إليها من الغد .

— حسن ! أسرعْ بسيرِ الجندِ والغلمـان ، وتمهّل أنت فى الخروجِ ، فإنّ نَفْسى لاتطاوع بفراقِكَ يا جعفر .

ورجع جعفرٌ إلى بيتِه ، وأخذ يستعِدُّ لهذا العملِ الجديدِ الكبيرِ . ووفد الشعراءُ والكبارُ على دارِهِ يهنئونَه بهذا الرضَا العظيمِ .

وخرج غلمانُ جعفرٍ وجنــودُه ، وقصدوا إلى خُرَاسَان .

وحدَّدَ جعفرٌ يومَ سفرِه هو ، وَأقام فى قصرِه حفلةً ساهرةً ليلَةَ السفر . وكان قصرُه مواجهًا لقصرِ الرشيدِ ، والرشيدُ يرى جعفرًا فى هذا الحفلِ وهو يختالُ فَرَحًا وسرورًا .



وقبل أن يَنتَهِيَ الحفلُ ، دعا الرشيدُ خادمَه مسرورًا ، وقال له :

— يا مسرور انصب خَيْمَةً فى وسطِ الحديقةِ وتعال إلىّ .

فَرَغ مسرورٌ من عمله فى دقائق ، ثم عاد ووقف أمامَ الرشيد ، وقال :

— أمرَك يا مولاى .

فأشار الرشيدُ بيدهِ من نافذةِ القصرِ إلى جعفرٍ وقال :

— سيخرجُ آخرُ رجلٍ من عندِ جعفرٍ بعد قليل ، فإذا حدث هذا ، فأَحضِرْ جعفرا واضربْ عُنُقَهُ فى الخيمةِ التى نصَبْتَهَا . واحذرْ أن تترَدَّدَ لئلاّ أضربَ عُنُقَكَ مع عُنُقِهِ .

انتظر مسرورٌ حتى خرجَ آخرُ ضيفٍ عند جعفر ، ودخل عليه وقال له :

— أجبْ أميرَ المؤمنين .

ففزِعَ جعفرٌ وقال :

— فَدَيْتُ أميرَ المؤمنين بنفسِي !! هل حدث له شرٌّ أو مكروه فى هذه الساعةِ ؟ !

— كلاّ ! أميرُ المؤمنين بخير . ولكنه يُريدُ أن يُطلِعَك على بعض أسرارِ خُراسانَ قبلَ سفرِك .

وما كاد جعفرٌ يَدْخُـــل حديقَةَ القصرِ ، حتى سَحَبَه مسرورٌ بغلظةٍ وخشونةٍ إلى الخيمةِ ، وضرب عنقَهُ وحمل رأسَه ، يقطر دَماً إلى الرشيدِ ، وألقاه تحتَ قدميْه .

فهَدَأَ الرشيدُ قليلاً ، ثم قال .

— يا مسرورُ ، لايطلُع الصُّبح على أحدٍ من البرامكة



وما كاد جعفر يدخل حديقته . . .

فى غيرِ السِّجْنِ ، ولا يبقَ لهم مالٌ ولا سِلَاحٌ . أَعَرَفْتَ !!

— حتّى الشيخُ يَحْيَى . . . ؟ !

— نعم ، حتى الكلبُ يحيي .

— أمْرَكَ يا مولاى .

— ٨ —

هذه قضيتُكم أيُّها البرامِكةُ ، هل أحسنْتُ عرضها ، وأرضيتُكُم بالصِّدْقِ فيها ؟

— نعم ، ولقد عرفنا من دفاعِك أننا وقعنا فى أخطاء ما كان يحسنُ بنا أن نقعَ فيها .

ونُحِبُّ أن نسألَكَ سؤالاً آخر :

— هل أحسَنَ الرشيدُ إلى نفسِه وإلى الخلافةِ بما فعلَه معنا ؟ !

— كلا . . كلا . لقد أنكر الناسُ عليه ما صنَع ، وخاف العقلاءُ أن يَخْدُمُوه ويتقرّبُوا إليه . ولم يَبْقَ له إلا الفَضْلُ بنُ الربيع ، بِخُبْثِهِ وضعفِه وَوشايته . وقد تمكّن من نفسِ الرشيدِ ، ومن شئونِ الدولةِ ، حتى استطاع بِدَسِّه ومَكْرِه ، أن يُوَقِعَ الفِتْنةَ بين وَلَدَي الرشيدِ من بعدِه :

فدارت الحربُ بين الأمِين والمأمونِ ، وكان الفضلُ ابنُ الربيعِ مُشعِلَ نارِها بين هذين الأخوين ، ولم تكن الفتنُ والحروبُ إلاّ بعدَ مَصرَعِ الأمينِ .

— إذاً قد انتقم اللهُ لنَا من زُبَيْدَةَ بقتلِ ابنِها ، وضَيَاع مُلْكِه ، كما تسبّبَتْ في ضياعِ دولتِنا . . . ! !

* * *

القصة التالية :

الأموى البرىء

قصص الرشيد

١ — الرشيد يتحدث
٢ — مَجد البرامكة
٣ — نكبة البرامكة
٤ — الأمويّ البرىء
٥ — فتح هِرَقْلَة
٦ — الجزيرة العائمة
٧ — فى جبال الماس
٨ — صانع السروج
٩ — كتاب لقمان الحكيم
١٠ — ليلة فى ضفاف دجلة
١١ — تاجر البصرة
١٢ — سجادة أَبى الكاظم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة